مبشرات من السنن الإلَهية

وهناك مبشرات أخرى مستمدة من سنن الله فى الخلق وفى الاجتماع الإنسانى ، وهى سنن وقوانين ثابتة تجرى على الآخرين ، كما جرت على الأولين ، وتجرى على المسلمين كما تجرى على المشركين ، لا تتخلف ولا تتبدل ، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ (١) .

فإذا نظرنا إلى هذه السنن الإلهية وجدنا مجموعة منها فى صفنا نحن المسلمين ، ودعاة الإسلام ، من ذلك :

* *

● **سُنَّة التداول** :

من هذه السنن : سنة [التداول] أو [المداولة] للأيام بين الأمم والأقوام ، وهى السنة التى قررتها الآية الكريمة من سورة آل عمران ، وقد نزلت بعد غزوة أحد التى أصاب المسلمين فيها ما أصابهم ، قال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ إِنَ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢) .

ولهذا قيل : الدهر يومان ، يوم لك ، ويوم عليك ، وقيل : دوام الحال من المحال .

---

(١) فاطر : ٤٣ (٢) آل عمران : ١٤٠

فالأحوال تتبدل ، والدنيا تتحول ، والعالم يتغير . وكم من غنى افتقر ، ومن فقير اغتنى ، وكم من عزيز ذل ، وذليل عز ، وكم من موسر أعسر ، ومن معسر أيسر ، وقد قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٢) .

ومن نظر فى أحوال الأُمم عبر التاريخ يجد شعلة الحضارة تنتقل من أمة إلى أمة ، ومن يد إلى أخرى .

ومن حسن حظنا أن [سنة التداول] أو [قانون المداولة بين الناس] يعمل معنا لا ضدنا ، وكما قال الإمام حسن البنا : إن الدور لنا لا علينا !

فقد كانت قيادة العالم قديمًا فى يد الشرق ، على أيدى الحضارات الفرعونية والآشورية والبابلية والكلدانية والفينيقية ، والفارسية والهندية والصينية . ثم انتقلت إلى الغرب ، على يد الحضارة اليونانية ذات الفلسفة الشهيرة ، والرومانية ذات التشريع المعروف ، ثم انتقلت هذه القيادة مرة أخرى إلى الشرق على يد الحضارة العربية الإسلامية، وهى حضارة متميزة جمعت بين العلم والإيمان ، بين الرقى المادى والسمو الروحى ، ثم غفا الشرق وغفل عن رسالته .

---

(١) الانشراح : ٥ ، ٦ (٢) الطلاق : ٧

فأخذ الغرب الزمام ، وكانت له القيادة مرة أخرى ، ولكنه لم يرع أمانة هذه القيادة ، بل أفلس فى ميدان الروح والأخلاق ، وفرط فى العدل ، وأعلى القوة على الحق والمصالح على القيم ، والمادة على الروح ، والجماد على الإنسان ، وكال بمكيالين فى التعامل مع القضايا البشرية ، فكان من سنة الله أن تنتقل الشعلة إلى غيره . والمفروض حسب استقراء التاريخ : أن تعود إلى الشرق مرة أخرى الشرق الذى يملك رسالة غير رسالة الغرب ، وهو الشرق الإسلامى ، فعليه أن يتهيأ لذلك ، ويعد له العدة ، كما قال تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّكُم أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٢) . وليس بعجيب أن تنتقل عجلة القيادة العالمية من الغرب إلى الشرق ، والغرب الآن هو المتفوق والمقتدر ، والشرق هو المتخلف والعاجز !

فالواقع أن المادية فى الغرب قد تغلغلت فى الفكر والسلوك والحياة ، وأن التحلل والفساد الأخلاقى قد وصل إلى النخاع ، وأن الحضارة لا يمكن - وفق سنن الله - أن تستمر بلا أخلاق ، والأخلاق لا يمكن أن تنمو وتؤثر إلا فى ظلال الإيمان (٣) .

---

(١) الأعراف : ١٢٩ (٢) الأنبياء : ١٠٥

(٣) انظر : فصل آفات الحضارة المعاصرة ، وفصل : عقلاء الغرب يدقون أجراس الإنذار فى كتابنا (الإسلام حضارة الغد) ص ٢٧ - ١١٦ - نشر مكتبة وهبة .

ولقد رأينا ورأى العالم كله ، كيف انهارت القوة العالمية الثانية - وهى الاتحاد السوفييتى - فجأة ، وبلا مقدمات تذكر ، برغم ما يملك من ترسانة نووية ضخمة ، وأسلحة استراتيچية جبارة ، وقوة عسكرية واقتصادية هائلة ، وما ذلك إلا لأن الخراب كان فى الباطن لا فى الظاهر ، وفى المعنويات قبل الماديات .

والغرب المنفرد الآن بالقوة وبالتأثير فى الساحة العالمية ليس أحسن حالاً من نظيره السوفييتى .

* *

● **سنة التغيير :**

ومن السنن الإلهية التى نجدها فى صف المسلمين ، ونعدها من المبشرات : [سنة التغيير] التى قررها القرآن الكريم فى أكثر من آية. فالذين يتغيرون من الخير إلى الشر ، ومن الاستقامة إلى الانحراف ، من الصلاح إلى الفساد ، ومن البصيرة إلى العمى ، يغير الله ما بهم من حال النعمة إلى النقمة ، ومن القوة إلى الضعف، ومن العزة إلى الذل ، ومن الرخاء إلى الشدة ، وهذا ما ذكره القرآن فى سورة الأنفال بعد أن ذكر مصير آل فرعون والذين من قبلهم ، الذين كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم .

وقال عز من قائل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ

آل فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (١) .

وهذه السنة إذا طبقت على أهل الحضارة الغربية الذين مكن الله لهم الأرض ، وسخر لهم قواها ، وآتاهم من كل الثمرات ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ووسع عليهم الأرزاق فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولكنهم - كما ذكرنا فى [سنة التداول] خانوا أمانة القيادة والمسؤولية ، وطغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وبعبارة وجيزة : أنهم غيروا ما بأنفسهم إلى الشر والفساد ، فهم أهل لأن يعمل الله فيهم سنته فيغير ما بهم . ويسحب القيادة منهم ، وينقلها إلى غيرهم .

وتتمة هذه السنة : أن الذين تتغير أنفسهم ، أو يتغير ما بأنفسهم من الشر إلى الخير ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ومن الانحراف إلى الاستقامة ، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الكسل إلى العمل ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، فهم أهل أن يغير الله حالهم أو يغير ما بهم من الضعف إلى القوة ، ومن الذلة إلى العزة ، ومن الهزيمة إلى النصر ، ومن الخوف إلى الأمن ، ومن الاستضعاف إلى التمكين .

---

(١) الأنفال : ٥٣ ، ٥٤

وهذا ما تشير إليه الآية الأخرى فى سورة الرعد ، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

وهذه السنة تمنحنا - نحن المسلمين - الأمل فى التغيير وتحسين الأحوال ، فقد رأينا الكثير من المسلمين فى عصر الصحوة الإسلامية ، يتغيرون تغيرًا جذريًا من الإعراض عن الإسلام إلى الإقبال عليه ، من الجهل بأحكامه ، إلى الحرص على التفقه فيه ، من التسيب والشرود عن تعاليمه إلى الالتزام بها ، من انشغال الفرد بخاصة نفسه وعدم اهتمام بأمر أمته إلى حمل هموم الأمة ، والمشاركة فى قضاياها بإخلاص وإيجابية ، من الجرى وراء اللذات واتباع الشهوات إلى إحياء الدعوة وتبنى الجهاد للدفاع عن الدين وحرماته ، من التكشف والتعرى عند النساء إلى الالتزام بالحجاب ، من البعد عن المساجد إلى عمارتها بالصلوات والدروس .

وكل هذه الأعمال والآثار تشعرنا أن الأمة قد تغيرت إلى حد كبير ، ومقتضى عدل الله تعالى وسنته ألا يتخلى عنها ، وأن يكافئها على هذا التغير النفسى والسلوكى العميق بأن يغير ما بها ، ويحولها إلى حال أفضل .

* * *

---

(١) الرعد : ١١

وقفات لا بد منها

أخى القارئ الكريم ؛ أحسب أن شعاع الأمل الذى يضئ جوانحى قد وصل إلى قلبك ، وأن غيوم اليأس والإحباط التى خيمت على أفئدة الكثيرين قد تقشعت أو أوشكت ، وأن الشعور بأن نصر الله قريب قد ساد وهيمن ، رغم المؤتمرات التى تعقد ، والمؤامرات التى تدبر ، والحملات التى تشن على الإسلام ، باسم التطرف حينًا ، والإرهاب حينًا ، والأصولية أحيانًا !

أجل ، إنى - برغم الضغوط الهائلة التى تتعرض لها الصحوة الإسلامية ، والضربات الوحشية التى توجه للحركة الإسلامية ، والمكايد الخفية التى تبيت للأمة الإسلامية ، وغفلة القائمين على أمر الأمة ، بل مساعدتهم لأعدائها على شعوبهم - برغم هذا كله أنا متفائل بمستقبل الأُمة والصحوة والدعوة .

ولطالما أعلنت فى أكثر من مناسبة فى محاضراتى ودروسى : أنه إذا كان القرن التاسع عشر قرن الرأسمالية ، والقرن العشرون قرن الشيوعية ، فإن القرن الحادى والعشرين هو قرن الإسلام .

ويمكن أن نقول : إذا كان القرن التاسع عشر قرن المسيحية ، والقرن العشرون هو قرن اليهودية ، وقيام دولة إسرائيل ، وانتصارها

على بضع وعشرين دولة عربية ، وبضع وأربعين دولة إسلامية ، فإن القرن الحادى والعشرين هو قرن الإسلام !

أعنى إذا نظرنا إلى الإسلام دينًا بين الدينين الشهيرين : اليهودية والمسيحية ، أو إذا نظرنا إليه باعتباره نظامًا بين النظامين العالميين : الرأسمالية والشيوعية - فإن الإسلام يتميز بأنه نسيج وحده ، ويحمل عناصر الخلود فى طبيعته ، والإحياء لأمته ، والانتشار لدعوته ، مع مسيس حاجة العالم إليه ، بوصفه رسالة التوازن الوحيدة ، التى يفتقر إليها الإنسان .

وأحمد الله أن الذى قلته منذ زمن وجدت اليوم من يشاركنى فيه : أن القرن القادم هو قرن الإسلام بإذن الله .

قال ذلك الدكتور (مراد هوفمان) فى كتابه (الإسلام عام ٢٠٠٠) الذى أكد أن الفرص متاحة أمام الإسلام ليصبح ديانة العالم الأولى فى القرن ٢١ .

وقاله (جيم ميران) عضو لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكى ، الذي دعا الأمريكيين إلى وجوب التعرف على الإسلام دين السلام والمسامحة ، الدين الذى يحث على الكد والاجتهاد ، ويحب النظام والالتزام ، ويفيض بالحب واللطف ، وهو يعتبر الرسول محمدًا أعظم إنسان عرفه التاريخ ، ويجب التعرف على جوانب عظمته التى كان يتمتع بها ، وكذلك عدد كبير من أصحابه ،

وكل شعوب العالم يجب أن تتعرف على التعاليم التى جاء بها محمد ، ولكن للأسف لم يحدث ذلك لسببين :

الأول : هو اتخاذ غير المسلمين موقفًا من هذه التعاليم ، منطلقه التعصب والتحيز والجهل .

والثانى : هو عدم سعى المسلمين حثيثًا لإطلاع غيرهم على عظمة دينهم .

وانتهى فى حديثه الطويل مع مدير تحرير مجلة (المجتمع) الكويتية إلى قوله : أنا أعتقد أن القرن القادم هو قرن الإسلام ، وقرن الثقافة الإسلامية ، وستكون هذه فرصة لإحلال مزيد من السلام والرفاهية فى كل بقاع العالم أ هـ [1] .

* *

● **تنبيه على أمرين** :

أريد أن أنبه فى هذه الوقفات على أمرين مهمين :

الأول : أن كل الدعاة والمصلحين المجددين كانوا من ذوى القلوب الآملة فى الله ، الواثقة بالنصر ، الراجية للغد ، المرتقبة لطلوع الفجر .

---

(١) انظر : حوار أحمد منصور مع جيم ميران فى مجلة (المجتمع) العدد ١١٩٠ ، الصادر فى ٥/٣/١٩٩٦ م .

ولا يصلح داعية يغمره اليأس من نجاح دعوته ، وانتصار رسالته ، بل الداعية الحق هو الذى يهزم الأمل فيه اليأس ، ويغلب الرجاء فيه عوامل الخوف والقلق ، ويطمئن إلى أنه مع الله ، فالله تعالى معه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (١)

* *

● **حسن البنا والأمل :**

وقد كان إمامنا الشهيد حسن البنا من أقوى الناس أملاً فى النصر، ورجاء فى المستقبل ، رغم ما يعلمه ويحسه من ألغام العقبات التى توضع فى طريقه ، بين ذلك فى محاضراته ودروسه ، وسجله فى رسائله الشهيرة ، وكتبه فى مقالاته ، وخصوصًا فى جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية . الذى كان يكتب فيها (حديث الجمعة) الأسبوعى ، ولا سيما فى سنة ١٩٤٨ م والمحنة تطل برأسها ، ويهئ (الطهاة المهرة) طبختها المسمومة .

أذكر من هذه المقالات : مقالاً بعنوان (ولو) يبشر فيه أن النصر قريب ، ولو اشتدت الغمة ، وأن الفجر قادم وإن طالت الظلمة ،

---

(١) الطلاق : ٢ ، ٣

ومقالاً بعنوان (أربعة أدلة) استدل فيه بالنصوص والتاريخ والحساب على أن النصر آتٍ لا ريب فيه .

وفى رسائله أكد هذا المعنى تأكيدًا بليغًا ، بأسلوبه (السهل الممتنع) كما فى رسالة (دعوتنا فى طور جديد) التى ركز فيها على (يقظة الروح) التى يريد بها حياة القلوب ، وصحوة الوجدان والمشاعر ، وطموح الأنفس وتوثبها لتحقيق الأهداف السامية والمثل العليا ، وهو ما فعله النبى ﷺ بنفوس أصحابه ، حيث غرس فيها هذه المشاعر الثلاثة : الإيمان والعزة والأمل ، الإيمان بعظمة الرسالة ، والاعتزاز باعتناقها ، والأمل فى تأييد الله إياها .

وفى رسالة (إلى أى شىء ندعو الناس) يقول البنا رحمه الله تحت عنوان (طريق طويلة) :

« أرجو أن تكون هذه الكلمات المتتاليات فى بيان دعوة الإخوان المسلمين قد كشفت للقراء الكرام عن غايتهم ، وأبانت لهم ولو إلى حد ما عن مناهجهم فى السير إلى هذه الغاية ، وقد تحدثت من قبل إلى كثير من إخواننا الغيورين على الإسلام ومجده حديثًا طويلاً هو أشبه بهذه الكلمات التى رآها القراء تحت عنوان : (إلى أى شىء ندعو الناس) .

ولقد أصغى إلىَّ من حدثتهم إصغاء مشكورًا ، وكنا نتفهم القول تباعًا أولاً فأولاً ، حتى خرجنا من المحادثة مقتنعين تمامًا بشرف

الغاية ونجاح الوسيلة . وكم كانت دهشتى عظيمة حين رأيت منهم شبه إجماع على أن هذه السبيل مع التسليم بنجاحها طويلة ، وأن التيارات الجارفة الهدامة فى البلد قوية ، مما يجعل اليأس يدب إلى القلوب الذى وجده أولئك المتحدثون من قبل ، وحتى لا يجد القراء الكرام فى أنفسهم هذا الشعور الذى وجده أولئك المتحدثون من قبل ، أحببت أن تكون هذه الكلمة مفعمة بالأمل ، فياضة باليقين فى النجاح إن شاء الله ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ؛ وسأحصر الموضوع فى نظرتين إيجابيتين :

* *

● **نظرة فلسفية اجتماعية** :

يقول علماء الاجتماع إن حقائق اليوم هى أحلام الأمس ، وأحلام اليوم حقائق الغد . وتلك نظرة يؤيدها الواقع ويعززها الدليل والبرهان ، بل هى محور تقدم الإنسانية وتدرجها فى مدارج الكمال ، فمن ذا الذى كان يصدق أن يصل العلماء إلى ما وصلوا إليه من المكتشفات والمخترعات قبل حدوثها ببضع سنين ، بل إن أساطين العلم أنفسهم أنكروها لأول عهدهم بها ، حتى أثبتها الواقع وأيدها البرهان ، والمثل على ذلك كثيرة ، وهى من البداهة بحيث يكفينا ذلك عن الإطالة بذكرها .

* *

● نظرة تاريخية :

إن نهضات الأُمم جميعها إنما بدأت على حال من الضعف يخيل للناظر إليها أن وصولها إلى ما تبتغى ضرب من المحال . ومع هذا الخيال فقد حدثنا التاريخ أن الصبر والثبات والحكمة والأناة وصلت بهذه النهضات الضعيفة النشأة ، القليلة الوسائل ، إلى ذروة ما يرجو القائمون بها من توفيق ونجاح . ومن ذا الذى كان يصدّق أن الجزيرة العربية ، وهى تلك الصحراء الجافة المجدبة تنبت النور والعرفان ، وتسيطر بنفوذ أبنائها الروحى والسياسى على أعظم دول العالم ؟ ومن ذا الذى كان يصدق أن هذه الشيعة الضئيلة المستترة من بنى علىّ والعباس تستطيع أن تقلب ذلك الملك القوى الواسع الأكناف ما بين عشية وضحاها ، وهى ما كانت يومًا من الأيام إلا عرضة للقتل والتشريد والنفى والتهديد ؟ ومن ذا الذى كان يظن أن صلاح الدين الأيوبى يقف الأعوام الطوال ، فيرد ملوك أوروبا على أعقابهم مدحورين ، مع توافر عددهم وتظاهر جيوشهم ، حتى اجتمع عليه خمسة وعشرون ملكًا من ملوكهم الأكابر ؟

ذلك فى التاريخ القديم ، وفى التاريخ الحديث أروع المثل على ذلك ، فمن كان يظن أن الملك عبد العزيز آل سعود وقد نفيت أسرته وشرد أهله وسلب ملكه يسترد هذا الملك ببضعة وعشرين رجلاً ، ثم يكون بعد ذلك أملاً من آمال العالم الإسلامى فى إعادة مجده وإحياء وحدته ؟

* *

● **هل هناك طريق أخرى ؟ :**

وثم نظرتان سلبيتان تحدثان النتيجة بعينها ، وتوجهان قلب الغيور إلى العمل توجيهًا قويًا صحيحًا ، أولاهما : أن هذه الطريق مهما طالت فليس هناك غيرها فى بناء النهضات بناء صحيحًا ، وقد أثبتت التجربة صحة هذه النظرية .

الواجب أولاً :

وثانيتها : أن العامل يعمل لأداء الواجب أولاً ، ثم للأجر الأخروى ثانيًا ، ثم للإفادة ثالثًا ، وهو إن عمل فقد أدى الواجب، وفاز بثواب الله ما فى ذلك من شك ، متى توفرت شروطه ؛ وبقيت الإفادة وأمرها إلى الله ، فقد تأتى فرصة لم تكن فى حسابه تجعل عمله يأتى بأبرك الثمرات ، على حين أنه إذا قعد عن العمل فقد لزمه إثم التقصير ، وضاع منه أجر الجهاد ، وحرم الإفادة قطعًا ، فأى الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا ؟ وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى صراحة ووضوح فى الآية الكريمة : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١) » (*) .

* * *

(١) الأعراف : ١٦٤ ، ١٦٥

(*) انظر : مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص (٥٢ - ٥٤) .

● المبشرات تدفع إلى المزيد من العمل :

والأمر الثانى الذى أريد التنبيه عليه هنا ، هو : أن المبشرات بمستقبل الإسلام ، التى ذكرناها ، لا ينبغى لنا أن نتكل عليها ، وننام على آذاننا ، ونخلد إلى الدعة والكسل ، وننتظر نصر الله ينزل علينا دون جهد نبذله ، وجهاد نمارسه ، وعمل دؤوب نقوم به فى جوانب حياتنا كلها ، نقوم ما اعوج منها ، ونصلح ما فسد ، ونبنى ما تهدم ، ونقوى ما ضعف ، ونكمل ما نقص ، بروح المجددين ، لا بعقلية المقلدين .

نستلهم تراثنا ، ونجعله منارًا يهدينا ، لا قيدًا يثقل حركتنا ، ويعوق انطلاقنا .

نقتبس الحكمة من أى وعاء خرجت ، فلا نتقيد بمدرسة إسلامية واحدة ، ولا نلتزم مذهبًا واحدًا لا نخرج عنه ، بل نستفيد من كل المدارس والمذاهب والمشارب ، فى ضوء القواعد المتفق عليها ، رادّين المتشابهات إلى المحكمات ، والظنيات إلى القطعيات ، والجزئيات إلى الكليات ، والفروع إلى الأصول .

بل نقتبس من مدارس الغرب ومناهجه وتجاربه كل ما ينفعنا ، ويمكننا أن نحوره ونطوره فى إطار معاييرنا وحاجاتنا وظروفنا ، حتى يلائمنا ، ويغدو جزءًا من منظومة حياتنا . ولا حرج علينا فى ذلك ، فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها .

لا بد لنا أن نخرج من سجن التخلف إلى باحة التقدم ، وأن ننمو نموًا حقيقيًا ، اقتصاديًا ، وبشريًا ، ماديًا ومعنويًا ، وأن نجند كل طاقاتنا - التى أهدرنا أو عطلنا الكثير منها - لتنمية شاملة ، للحياة وللإنسان ، وأن نتخذ من الإسلام أكبر حافز لحشد هذه الطاقات وتقويتها ، ودفع عجلتها إلى الأمام بقوة قد تبلغ عشرة أضعاف الجهد العادى ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى فى ميدان الجهاد : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

لقد أرشد القرآن إلى أن نصر الله لا يكون ولا يتم إلا بالمؤمنين ، كما أنه لا يكون إلا للمؤمنين . كما قال تعالى يخاطب رسوله الكريم : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

فلا نتوقع أن تنزل ملائكة السماء التى نزلت فى بدر أو فى الأحزاب أو فى حنين - على قوم فرغت قلوبهم من الإيمان ، أو خلت حياتهم من أخلاق الإيمان ، وأعمال المؤمنين ، فالله تعالى يقول فى بدر : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٣) .

إن الرسالات لا تنتصر وحدها ، إنما تنتصر بأهلها ، والحق لا

---

(١) الأنفال : ٦٥ (٢) الأنفال : ٦٢ (٣) الأنفال : ١٢

يعلو وحده ، إنما يعلو - وفق سنن الله - بدعاته ورجاله الذين جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص ، كما قال الشاعر :

وشيمة السيف : أن يزهى بجوهره وليس يعمل إلا فى يدىْ بطل !

إن المبشرات بانتصار الإسلام يجب أن تمنحنا وقودًا متجددًا ، لمزيد من العطاء والعمل الذى تحتاج إليه أمتنا على كل صعيد . ولا تطمع الأُمة أن يمدها الله بنصره ، على ما بها من سىء الخصال ، وسىء الفعال ، بل لا بد للأمة أن تغير ما بأنفسها حتي يغير الله ما بها .

لا تطمع الأُمة أن تنتصر على اليهود ، وهى على حالها من التخلف والتمزق ، والتعادى ، والعجز والكسل ، والتسيب والضياع .

يستحيل أن ينصر الله الكُسالى على العاملين ، والمختلفين على المتحدين ، والفوضويين على المنظمين ، والمرتجلين على المخططين ، والمتسيبين على المنضبطين ، والمفكرين فى مصالحهم على المفكرين فى هموم أمتهم .

يستحيل أن تنتصر أمة تحارب أفضل عناصرها ، وتنكل بخيرة أبنائها ، أعنى : العناصر الإسلامية ، التى يشهد لها من عايشوها أنها أذكى عقولاً ، وأطهر قلوبًا ، وأنظف أيديا ، وأصدق عزائم ، وأزكى أخلاقًا ، وأقوم أعمالاً ، وأكثر بذلاً وتضحية ، من سائر الفئات .

إنهم بريئون من ارتكاب الموبقات ، بل الصغائر ، بل الشبهات ، حتى السيجارة لا يعرفونها ولا تعرفهم . إنهم رهبان الليل وفرسان النهار ، يعرفهم الليل قانتين ، والنهار جاهدين ، ويعرفهم الناس عاملين ، ويعرفهم ربهم مخلصين ، ولا نزكيهم على الله تعالى .

يستحيل أن تنتصر أمة أعظم ما يشغلها لعب الكرة ، وأهم ما يملأ صحفها المقروءة ، وإذاعتها المسموعة والمرئية هو الغناء والرقص والتمثيل ، وأشهر نجوم المجتمع فيها ليسوا العلماء ولا الأدباء ، ولا المفكرين ، بل هم المطربون والمطربات ، والراقصون والراقصات ، والممثلون والممثلات ، الأحياء منهم والأموات !

يستحيل أن تنتصر أمة متوسط عمل الفرد فيها نحو نصف ساعة فى اليوم ، فى حين يعرق الناس فى العالم المتقدم طوال اليوم ، ويكد ويكدح حتى يعود إلى بيته آخر النهار ، مكدودًا مهدودًا ، يخلد بسرعة إلى الراحة ليواصل عمله مبكرًا فى غده .

على القوى الموجهة للأمة ، المؤثرة فى سيرها ، أن تتعاون فيما بينها للنهوض بها فى كل الميادين ، وتعويض ما فاتها على مر السنين ، وسد الفجوة التى تباعد بينها وبين العالم المتقدم ، ومواجهة التحديات بعزم وإيمان ، معتمدة على تخطيط دقيق ، واستشراف مستقبلى بصير .

عليها أن تدرس الأمراض التى تشكو منها ، وتعرف أسبابها ،

وتعمل على علاجها ، وما خلق الله داء إلا خلق له دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله .

عليها - فى الجانب الاقتصادى - أن تعمل على زيادة الانتاج ، وترشيد الاستهلاك ، وعدالة التوزيع ، وسلامة التداول .

وفى الجانب الاجتماعى : أن تقوى الإخاء بين الأفراد ، والتعاون بين الطبقات ، والتضامن بين الشعوب ، وأن تقرب المسافة بين الأغنياء والفقراء ، وأن ترعى الأمومة والطفولة والشيخوخة ، وتقيم الحياة الأسرية على أسس مكينة تظلها السكينة والمودة والرحمة .

وفى الجانب العقلى والثقافى : عليها أن تتحرر من آثار الغزو الفكرى ، والاستعمار الثقافى ، فى مجال التربية والتعليم ، ومجال الثقافة والإعلام ، فهذه هى التى تصنع عقول الناس ، وتنشئ اتجاهاتهم النفسية والفكرية .

وفى الجانب السياسى : عليها أن تقاوم الاستبداد والطغيان ، وترسّخ دعائم الشورى ، وترعى حقوق الإنسان ، وتربى الناس على ضرورة التناصح وفرضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتقويم العوج باليد لمن استطاع ، وباللسان لمن قدر عليه ، وبالقلب عند العجز ، وذلك أضعف الإيمان ، وأن تضع من الدساتير ما يفصل الحقوق والواجبات ، يميز بين السلطات ، ويقيم دولة المؤسسات ، ويسوى بين الناس فى الكرامة والحرية وتحمل المسؤولية . ولا يعطى امتيازًا لأحد على أحد إلا بالتقوى .

لقد بينا فى كتابنا (أين الخلل ؟) الطاقات المعطلة فى الأمة الإسلامية ، والطاقات المعطلة فى الحركة الإسلامية ، ودعونا إلى إصلاح الخلل فى الجانبين ، إن أردنا غدًا أفضل ، ومستقبلاً أمثل .

لا بد أن يتعاون الدعاة والمصلحون لاستفراغ الجهود ، لتغيير الأمة من داخلها ، وتعبئة قواها الذاتية ، لتعوض ما فاتها ، وتلحق بركب العالم المتطور ، تأخذ أفضل ما عنده ، وتعطيه أفضل ما عندها . ولا ريب أن عندها الكثير الطيب المبارك ، الذى ورثته من رسالة الإسلام ، وحضارة الإسلام .

وإن الإسلام - الذى غير العرب قديمًا ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وجعلهم رعاة الأمم ، بعد أن كانوا رعاة الغنم ! - قادر على أن يغيرهم اليوم ، ويعيدهم - كما يحب الله لهم - خير أمة أخرجت للناس ، وأن يجعل منهم (صحابة جددًا) بعثهم الله تعالى ، ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان والمذاهب والفلسفات إلى عدل الإسلام ، وقيم الإسلام .

إن الصحابة رضى الله عنهم كانوا موقنين - كل الإيقان - بأنهم منصورون ، وأن جندهم هم الغالبون ، وأن هذا وعد الله ، ولن يخلف الله وعده ، ولكن هذا الإيمان أو اليقين لم يقعدهم عن العمل الجاهد ، وعن الجهاد المر ، وعن البذل الدائم ، حتى يتحقق وعد الله ، فإنما يتحقق فى الأرض وعد الله فى السماء بهم ،

لا بغيرهم ، فهم أدوات القدر فى تحقيق الوعد الإلهى . بل هم القدر الموعود ، كما قال بعض الصحابة رضى الله عنهم .

فقد رووا أن بعض قادة الفرس سأل بعض قادة الصحابة فى إحدى معارك الفتح الإسلامى : من أنتم ؟ وما شأنكم ؟ فقال له : نحن قدر الله ، ابتلاكم الله بنا ، وابتلانا بكم ، فلو كنتم فى سحابة لصعدنا إليكم ، أو لهبطتم إلينا !

بهذه الروح القوية المتوثبة الآملة يجب أن نجابه مشكلاتنا ، ونواجه معوقاتنا من الداخل ومن الخارج ، بادئين بالداخل ، فهو أُس البلاء وجرثومة الداء . والله تعالى يوجهنا إلى ذلك حين خاطب المسلمين بعد انكسار غزوة أحد فيقول : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١) .

فلنمض إذن على بركة الله عاملين مصممين ، فى صدق لا يعرف الزيف ، وثبات لا يعرف التردد ، وعزم لا يعرف الكلل ، ويقين لا يعرف الشك ، وأمل لا يعرف القنوط ، وجهاد لا يعرف القعود . ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٦٥ (٢) العنكبوت : ٦٩